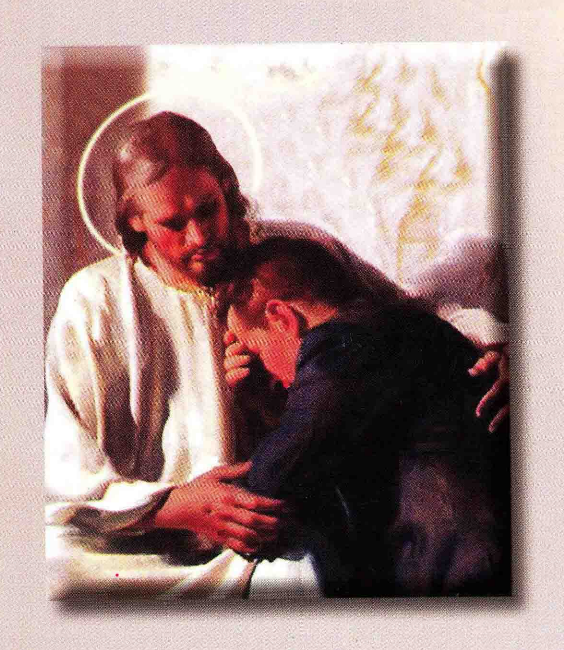


المكتبة القبطية على الانترنت
زيارة الموقع

القمص يوسف أسعد



يوميات تائب

يارب إنني لا أحتمل الظلم والإفتراء ...

تتعطل توبتي كل يوم بسبب ما أسمعه من كلام إفتراء ، وما أشاهده من تدابير تحول الإفتراء إلى حقائق ، وألمس بنفسي أثر هذا وذاك في قلوب تلاميذ المسيح البسطاء ...

إن الإفتراء هو نتيجة طبيعية لعدم إبقاء خوف الله في معرفة الإنسان ، وهو عمل غير لائق (رو ١:٢٨) يكون ثمرة للمناقشات والمباحثات الغبية ومماحكات الكلام البطّال (١تي ٦:٤،٥) وهو دلالة على تصلف الإنسان وكبريائه (مز ١١٩:٧٨) . وسيلته اللؤم (إش ٣٢:٦) وتدبيره المكر (إر ٩:٥) وأمام حكم الله يستوجب الموت الأبدي (رو ١:٣٠،٣١) ! .

آه يارب ... وجعي لا يوصف وأنا أواجه إفتراءات متكررة ، وأشخاص يتعبون أنفسهم في الإفتراء ... نفسي تتعب ، وقلبي يدمي ، وجسدي يضعف ...

إنني أقرأ عن معاناة القديسين من شاول المُفتَرى عليهم (١تي ١:١٣) بجهل ، وكيف أثمر إحتمالهم فيه حتى صار بولس المُفتَرى عليه لأجل الإيمان الحقيقي بإبن الله الحيّ (رو ٣:٨) .

ويحضرني سلوك داود النبي لما أفترى عليه شمعي بن جيرا وسبّه ، وأشار المستشارون على داود بقتله بعد أن سلّم نفسه للملك وقال أخطأت ... أتذكر نقاوة قلبه وهي ترفض هذه المشورة بل تسامحه (راجع ٢صم ١٩ :١٨ــ٢٣) .

وأشكرك يارب لأنك أرسلت من يذكرني بسلوك المتنيح الأرشيدياكون حبيب جرجس مع أحد تلاميذه ، والذي كان قد عيّنه واعظاً بكنيسة السيدة العذراء بالفجالة ، ثم نشر ذلك الواعظ مقالة إفتراءٍ في عفة ذاك الطاهر لأن بيته كان يأوي طباخاً وزوجته وطفلتين ؛ مدعياً أن هاتين الطفلتين هما ثمر زنا الأرشيدياكون مع زوجة الطباخ !!! .. ذكرتني نعمتك بأن الواعظ كان يتوقع فصله من العمل كواعظ عند انعقاد لجنة الوعظ بالمجلس الملّي لأن حبيب جرجس كان أحد أعضائها . لكن الواعظ فوجيء بالطاهر المفترى عليه يدافع عنه عندما أرادات اللجنة رفع مرتب زميله ٥٠ خمسون قرشاً دونه ، إذ أصر حبيب جرجس أن يرفع مرتبه أسوة بزميله !! لقد كانت مفاجأة لذلك الواعظ أن الذي افترى عليه ظلماً دافع عنه وأحسن إليه ، فخجل جداً ... وعندما حانت الإنتخابات التالية للمجلس الملّي كان هو المتحمس للدعاية قولاً وكتابة عن الطاهر العظيم حبيب جرجس !!!...

آه يارب ... كيف أنسى القديس العظيم الأنبا مقار الكبير ، وهو يفترى على عفته من فتاة زانية زنت مع آخر واتهمت القديس بثمرة زناها ، لا أنسى ما قرأته عن احتماله إهانات وتعيير وهزء وسخرية شعب

بأكلمه دون أن يدافع عن نفسه ، ثم قبوله لهذه الزانية أن تقيم في خُصٍ مجاورٍ لخصهِ ، ثم يتعب بيديه في عمل الخوص ويقول لنفسه « كِدّْ يامقاره كد لأنه أصبحت لك زوجة !! » ويبيع تعب يديه ويعطى المفترية عليه لتنفق وتحيا !!!

آه يارب ... آه يارب ... آه يارب ...

في كل الأجيال قديسيك يفترى عليهم : بعضهم يصمت مثلما صمت أنت ياربي وشهد عنك إشعياء النبي « ظلم أما هو فتذلل ولم يفتح فاه » (إش ٥٣:٧) ، وبعضهم يدافع مثلما واجهت عبد رئيس الكهنة عندما لطمك على خدك بقوله لك « إن كنت قد تكلمت ردياً فاشهد على الردى ، وإن حسناً فلماذا تضربني ؟! » (يو ١٨:٢٣) ، وبعضهم يُخرج العالم قضاياهم أنه مذنبون ويحكمون عليهم بأغلبية مع أنهم أبرياء لكي يظل نداء الضمير المسيحي : إن صوت الأغلبية ليس برهاناً على العدالة ! لقد صرخوا بصوت واحد « اصلبه . اصلبه » مع أنه لم يصنع شراً ولم يوجد في فمه غش . وبعضهم يقبلون هذا الظلم ولا يجدون من يبرئهم تحت شعار أن القانون يطلب الأدلة ويستند على القرائن التي يجيد الأشرار حبكها على القديسين ، يقبلون ذلك مقهورين ولكن متأكدين من عدل الله الذي لا يطيق الظلم ولا يحتمل الإفتراء على الأبرياء .

ياإلهي .. إنني أومن بقدرتك وعدلك مهما افترى العالم ، وظلم الناس قديسيك . بل كلي رجاء ويقين أنك تحول المفترين وتعمل في قلوبهم

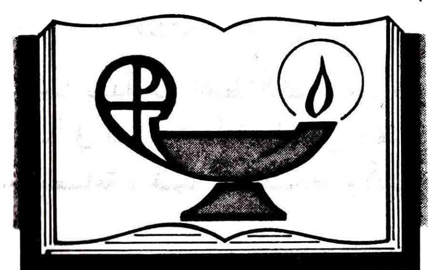
وتنخس ضمائرهم وتطيّر النوم من آجفانهم والراحة من بيوتهم حتى ينصفوا المظلومين على أيديهم والمفترى عليهم بسبب مؤامراتهم ..

أومن بهذا يارب ،

لكن يبقى قلبي أنا ، أترجاك أن تعلمني كيف أُشفَى من إصابات الافتراء وصدمات المفترين ؟!! أرجوك يارب أن تمنحني المعرفة الصالحة دائماً ، وفي كل شيء بالخبرة الصافية وسلوك الأنقياء .. وتجعل لي الضمير الصالح دائماً ، الذي لا يرضى للناس بما لا أرضاه لنفسي مهما كان الثمن المدفوع لهذا الصلاح لدى العالم . دبرني يارب في سيرة صالحة بأعمال حسنة تسندها نعمتك الغنية السخية للضعفاء والفقراء الذين أولهم أنا ...

ساعدني يارب بالمعرفة الصالحة والضمير الصالح والسيرة الصالحة أن أتجاوز كل إفتراء متأكداً من عدلك الذي لا يطيق الظلم وينصف المظلومين سريعاً ويبرىء المفترى عليهم براءة الشمس في حدقة الظهيرة .

ياإله العدل إحفظ نفسي من تحطيم الإفتراء والمفترين ، ولا تسمح لتوبتي أن تعاق بهذا .



٢٧

في كل مجالات الحياة يوجد أشخاص قمميون تجمعهم سمات إنسانية مشتركة وإن كان صوت الإيقاع الذي يخرج من سلوكهم في الحياة أنغاماً مختلفة .

ففي المحيط الكنسي نجد قمماً في الحب الزيجي ، الأسري ، وفي التربية الروحيَة ، وفي التطبيق الإنجيلي البسيط وسط العمل والحياة اليومية . قمماً في النسك ، وفي الزهد عن الزواج ، والعطاء غير المحدود ... قمماً في الصلاة الروحية والتسبيح الفردي والجماعي في المخدع أو في القداس .. قمماً في التعليم والوعظ ، في التأليف والترجمة ، في الدراسة والبحث ... قمماً في اللغات الأصلية ، وفي اللغات المعاصرة ، والقدرة على مخاطبة قطاعات أوسع من شعوب العالم ... قمماً في حل الخلافات وحسم المشاكل ، وفي إكتشاف المداخل والمخارج ، وفي قبول الإعترافات وتلمذة النفوس للمسيح .... قمماً في الضيافة ، وفي أعمال الرحمة المتنوعة ، وفي طرق إخفاء الخير بدهاء ... قمماً في سرعة أداء القداس ، وأخرى في إتقان القداس بألحانه وروحياته .... الخ .

وإذا خرجنا بعيداً عن المحيط الكنسي نجد قمماً في العلم بفروعه المختلفة : قمماً في الفن ، قمماً في الموسيقى ، قمماً في الفضاء ، قمماً في الزراعة والصناعة ، قمماً في الصحافة والأدب ، قمماً في الجمال

والأناقة ، قمماً في الديكور والنظافة ، قمماً في التخطيط المستقبلي للأمم ... نجد قمماً من العلماء ، ومن المهنين . من البسطاء ومن الفلاحين ... الخ .

أرجو أن يتسع خيا لك الآن ياعزيزي للبحث عن قمم أخرى ربما يقع بصرك عليها بسهولة الآن ... لكن في جميعهم نلاحظ أن الشخص القممي هو نتاج الحياة البسيطة التي تعبّر بتلقائية غير متكلفة مهما كانت رواسب البيئة والتربية ظاهرة سلوكياً ... إنه يقنع بالحياة البسيطة لكنه يضع بداءاته بين أيدي معلمين كثيرين يجول بينهم كنحلةٍ يجمع رحيق خبرتهم وعملهم ليجعل منهم جامعة لتلميذ واحدٍ . فتحمل حياته البسيطة دسماً مكثفاً يؤهله لجهاد القمم الذي لا يتخلى معه عن فضيلة المشاورة مع أصحاب الرأي باستمرار لا سيما قبل بدء أي عمل قممي فتجده كأنه تلميذ اليوم وإبن اليوم فلا تفقده قمميته تلمذته المتواصلة ...

هذا التواصل في التلمذة يقيم بينه وبين معلميه من جهة وبين مدبريه من جهة أخرى جسراً بين قلبه وقلوبهم يجعل منه قدرة دائماً للتعبير المتجدد في العطاء غير المتكرر والسخاء غير النمطي ... فيبادلونه دائماً حباً وتجاوباً إنصاتاً وتفهماً ... فرحاً وتشجيعاً ...

وخلال هذا التواصل نجد الشخص القممي يحتفظ بصداقات قممية مماثلة ؛ وإن كانت معدودة جداً وغالباً تقل عن أصابع اليد الواحدة .. وكنموذج للقاءات الصداقات القممية نجد الأنبا بولا أول السواح والأنبا

أنطونيوس أب الرهبان في العالم ورغيف الخبز الكامل قمة الإيمان المختبر لكرم الضيافة مع الغراب قمة الطيور الأليفة الطائرة والأسد قمة حيوانات الغابة والنخيل قمة مزروعات البرية ...

هذه الصداقات القممية المحدودة جداً لا تدخل صاحبها في برج عاجي لفقده الحس المرهف والشعور الرقيق بالعامة . ولا سيما المنكوبين والمطحونين بل تمنحه التدبير المتقن والقدرة الحكيمة للتعبير عن المشاعر الخاصة بلغة حية تصل إلى قلوب الكادحين والمقيدين .. فلا تصير الصداقات القممية إلا إضراماً للإحساس القممي بكل أنين في الخليقة ..

لهذا لا يستطيع أحد أن يمتلك شخصية قممية ، ولا حتى هذه الشخصية تستطيع أن تملك ذاتها إذ بقدر فرادتها غير المكررة تصبح ملكاً لإسعاد الخليقة كلها ... وهذا يقتضى من رفيق القمة وأصدقائه . إدراك ذلك بوضوح لئلا يخنقوه فلا ينتفعون هم ولا أحداً غيرهم بهذا العطاء القممي ...

والشخص القممي تجده دائماً وليد البداءات الصعبة والإمكانيات المُقتِّرة والأجواء المتفاعلة ، لذلك يُفرض عليه دائماً صراعات ومنافسات روح الغيرة الإنسانية الردى ، يظل خلالها الشخص القممي بجوهره الأصيل وهو الفكر المستقر المتزن والعنصر المطمئن الذي ينبع من إرتباطه بخلفية جميلة من الفن الإلهي الأصيل في الطبيعة الساحرة والهواء الطلق وكل الفنون المعاونة أثناء عمله في المطبخ القممي ...

فلم يوجد شخص قممي لم ينل منه تطاول صغار وصدمات أحجار وطعنات فئران وأخلاقيات أقزام ... لكن من سمات الأشخاص القمميون قدرتهم على امتصاص الصدمات والتعبير عن الحياة النقية والقوية التي بداخلهم ولو بلسانٍ جريح . لقد قال الحكيم « الكلب الحيّ خير من الأسد الميت » (جا ٩ : ٤) إنهم مثل الأشجار الشامخة التي تُقذف بالحجارة فتعطى لقاذفها ثماراً شهية بهجة !!

على أن القاسم المشترك بين حروب القممين هو أن وجودهم في حد ذاته يمنع أو يعيق حركة محدثين آخرين مع الإدعاء بأن هؤلاء لو أخذوا ما يأخذه القمميون لأعطوا واثروا وأبدعوا . وتحمل هذه الحرب ضمن ماتحمله محاولات النيل في سمعتهم أو التشهير بأخطائهم أو التصيد لهفواتهم . ولكن خبرة السنين تظهر في كل الأجيال أن الأشجار المعمرة القوية التي تضرب جذورها في القلوب لا يقوى أحد على محاولة تحجيمها بهوى المحدثين بالقطع أو الإبعاد أو الإهمال أو تقليم الأجنحة ... كما تظهر هذه الخبرة سخاء القمة في معترك الميدان المفروض عليها للإبداع المتواصل كإبداع الأمومة الدائم في الدفيء والحنان وإبداع الأبوة الدائمة في الصياغة والتشكيل ولو بدون ارتباط لحمى أو تعاطف دم بشري ... إنه إبداع مجرد !! .

إن الأشخاص القمميون يقدرون ويحسون بالمحدثين في مجالهم لكنهم لا يمكنهم التوقف عن السير والعطاء الحركي لإرضائهم . فهناك بعض من المحدثين لا يمكن أن يفهموا التقدير أو الإحساس بهم إلا إذا أوقفوا القمم عن الصعود ، وهذا وإن كان يؤكد أن أمام هؤلاء الشوط كبير في جهاد

الحسد والغيرة ، إلا أنه لن يحدث مطلقاً أن تتوقف قمة حقيقية عن الصعود والعطاء بحجة تقدير المحدثين أو إرضاء سطحيتهم ... هكذا ياعزيزي ترى أن كل من يقف على القمة ليس سعيداً ، فالإحتفاظ بالقمة أكثر صعوبة من السعي إليها ...

فالأشخاص القمميون إن داخلهم الحسد والغيرة من قمم أخرى يهبطون فوراً إلى القاع بل وتحتبس عنهم جميع المواهب القممية التي يحملونها ويغلق عليها غلقاً مؤبداً .. لذا تجد الأشخاص القمميون غرباء عن الحسد والغيرة وإن كانوا دائماً يُحاربون بها من الآخرين ... بل تجدهم عند لقاء قمة جديدة غاية في السعادة ، وغاية في التقدير وتتضاءل نفوسهم جداً أمامهم . ما أعظم الأب الذي بعد زيارته لمجموعة من رهبان أسقيط مصر قال : « أنا لست راهباً ، لكني رأيت رهباناً ! » ...

لذلك محاولة مقارنة القمم بالمحدثين هو إهدار لقمميتها وهو عمل محكوم عليه حتماً بالفشل ... فالأشخاص القمميون غير قابلون للتكرار إلا بعد أجيال متعاقبة من القدرات ...

كما أن محاولة تخليد القمم لا يكون بالطوب والمباني والصور الزاهية ... إنما في المقام الأول بالتلاميذ الحقيقيين الذين يحملون روح وأسلوب القمميون والذين يحتفظون فى ذاكراتهم بمعايشة صادقة لمبادئهم الحية التى لا تموت كتراث شاهد على أن أصحابه عمالقة : ولدوا عمالقة وعاشوا عمالقة ودخلوا القبر عمالقة ولم يموتوا أبداً !

إنني أكتب الآن هذا بعد ساعتين متواصلتين قضيتهما بتركيز ذهني كامل وسعادة عاطفية قوية ونشاط لم يتطرق إليه تعب مع شخصية عظيمة وقمة رفيعة ... ثم بدأت محاولة رسم أيقونة فكرية عن سمات القمم ... فالحديث عن القممين وسماتهم هو هدف لكل من يسعى لحفظ نفسه في اتضاع الفكر ، فمقارنة الإنسان لنفسه بالقمم جهاد دائم يحفظ في أساس متين من التواضع مهما بلغ من مواهب ومصاعد ... لعلني نجحت في هذه المحاولة ، وإن لم يكن النجاح حليفي فيكفيني الإمتاع الشخصي الذي عشته معها !

مبارك أنت يارب ، فإن كانت هذه القمم لجبالٍ فأنت تأتي قافزاً عليها كالأيل .. أنت الذي تجعل العظماء لا شيئاً (أ ش٤٠: ٢٣) أقدم لك الكرامة كل الكرامة من خلال لقاء هذه الشخصية القممية . آمـين .

٢٨

في خلال رحلة إلى مدينة بورسعيد ، قضيت النهار كله بجوار قاعدة تمثال ديلسبس سعيداً برؤية البواخر الضخمة وهى تعبر في هدوء إجباري للقناة . إلى أن رأيت باخرة شحن ضخمة وقفت تماماً أمامي ورُبطت بالحبال ، في « الشمندورة » المجاورة . وبعد لحظات رأيت قارباً خشبياً صغيراً جداً بمجدافين من البلاستيك يستخدمهما فرد واحد اقترب من الباخرة العملاقة ثم رفع حبلين في كل من مقدمة ومؤخرة قاربه إلى مكانين مختلفين في الباخرة لكي يستقر بجوارها تماماً . ثم بدأت عملية تموين

الباخرة العملاقة من هذا القارب الصغير بواسطة صناديق خضراء ترفع بحبالٍ على بكرة مثبتة على الباخرة العملاقة ... واستمرت عملية التموين مستمرة ثم بعد فترة أعيدت الصناديق الفارغة مرة أخرى إلى القارب الصغير . كان عدد من رأيتهم من البشر فوق سطح الباخرة العملاقة واستطاعت رؤيتي المحدودة تمييزهم يزيد عددهم عن الثلاثين ... واستمرت عملية التموين أمام عينيّ تثير فيّ أن النفوس العملاقة لا تستخف بالفرد الواحد الضعيف بل يكون مصدر تموين روحي لها في كل مرة تقترب من سطح الحياة تاركة حياتها في الأعماق ... مثل هذه النفس الواحدة الضعيفة قد تكون ضحلة في الطهارة ، في الفكر ، في التصرف لا تستطيع الإبحار في العمق لكن بدون امكانياتها البسيطة يعجز العمالقة عن الحياة ويتعرضون للموت .

التائبون الصادقون تشتد فيهم جذوة الجهاد الروحي بما يقابلهم يومياً من أشخاص ذوى خبرات ضحلة أو أفكار ساذجة بل ربما يجدون من خلالهم نداءً إلهياً نحو عمق حقيقي .. بل نجدهم يذكرون دائماً فضل الأحداث اليومية العابرة والأحاديث البسيطة بين الناس والأشخاص العاديين في سلوك الحياة ... يذكرون فضلهم في إذكاء روح الجهاد القانوني وإضرام السلوك التائب والحب الإلهي في قلوبهم ...

عرفت من هذه اللقطة العابرة في هذه الرحلة الخادمة معنى قول القديس أنطونيوس الكبير : « اجعل كل أحدٍ يباركك » .

« كمية كبيرة من الخُرْدة المتبقية عن صناعة الحديد والصلب كانت تلقى على رمال ثلاث آلالاف فدان ، كانت تمثل عبئاً اقتصادياً وفاقداً لا قيمة له بل ومطلوب التخلص منه . وجدت هذه الكمية عقلاً مفكراً إستعان بخبرةٍ واعية فحوّل هذه الخردة إلى حديد جديد أصبح ذا فائدة جديدة بالإضافة إلى ما وفرّه من مساحات كبيرة من الأرض وما استخدمه من أيدي عاملة حصلت على أجور مجزية وقادت إلى تحسن إجتماعي ملموس ... »

هذه الرواية رواها لي أخ أثناء رحلة كانت تمر على مصنع الحديد والصلب بالتبين ، مؤكداً لي هذه المعلومة التي إستقاها من زوج شقيقته والذي يعمل بهذا المشروع ... قالها لي وهو يسلّي وقتي ويقطع طول الطريق ...

لكنها كانت فكرة سماوية التقطتها مع الصباح الباكر من فم إبن كان يشكو لي بالأمس فقط من انهزامه وسقطاته وفشله !!!! لقد ذكرت له في الحال فكر السيد المسيح الإنجيلي الذي يقدم دائماً ـــ بخبرة القديسين التائبين في كل جيل ـــ القدرة الكاملة على تحويل الخراب إلى محراب واخراج العمار من الدمار ... تلك هي المحبة الإلهية التي أُعلنت في المسيح يسوع ربنا بالمذود والصليب والفداء والتي تعطي ثقة لا حد لها في مراحم الله الصادقة مهما كانت الخطية شديدة ومهما كانت العثرات عديدة

.... إن هذه المحبة وتلك الرحمة قادرة على تحويل « خُرْدة الخاطيء » إلى جمال التائب الذي يصير خميرة مقدسة للعالم كله : يتقدس ويقدس كثيرين ...

نعم هذه الفكرة كانت من فم شاكي عاثر فكانت بركة حقيقية . وكانت له ومن فمه رسالة شخصية من الله الذي إذا كان قد أعطى الفكر البشري هذه القدرة على تحويل غير النافع إلى نافع ، فهل يستحيل على قدرته الإلهية أن يجعل كل منا موسى أسود جديد ويجعل من فشلنا المتكرر علامة بارزة على معجزاته الإلهية في تحويل العاثر إلى قائم والقائم إلى ثابتٍ والثابت إلى مثابرٍ ؟!!

أشكرك ياربي يسوع على هذه الرحلة ، وعلى لقاء هذا الإبن المبارك ، وعلى هذه الفكرة المباركة ... اقمني يارب أنا الساقط وأقم ابنك وثبتني وثبته فيك أغصاناً حيّة مثمرة بالتوبة والصبر معاً .

٣٠

هل تقابلت مع البخل يوماً ؟

+ إنه يُرى فيمن يحصى عدد شعر رأسه المتساقط ، وحبات الرمل وقطرات المياه وذرات السكر واستهلاك الأقدام لحفيف البساط واستهلاك المياه والصابون والقماش والكي في الملابس !!

يُرى فيمن تسيطر عليه أنانيته في طلبه المتواصل وإلحاحه المتكرر

لتحقيق رغبة أو شهوة مستغلاً في ذلك الإنسان والحيوان والمخلوقات الإستغلال الأبعد والأقصى ليجنى كل ما يمتع به نفسه حتى ولو امتص الدماء بدهاء !

+ يُرى فيمن يخطط مسبقاً دائماً لكي يحصد أكثر نفعاً مما تكلف أو أنفق ، حتى ولو كان في العواطف أيضاً ! فالبخيل ليس بخيل المال فقط بل يسود شحه على كل شيء بما فيه العاطفة ، وكيف يتأتى لبخيل عطاء العاطفة وليس له مبدأ للتعامل سوى المنفعة والمصلحة والقنية دون نظر لظروف الآخر أو التفكير فيها .

● وقد يزداد البخيل مالاً ، فمعظم البخلاء أغنياء ... مع أنه ليس بالضرورة أن يكون كل غني بخيل ... لكن البخيل الذي يزداد مالاً يزداد فقراً في روحياته بل في انسانيته أيضاً .

● وقد يزداد البخيل سلطة ، لكنه يزداد فقراً في وحدته لأنها تمنحه امكانيات أوسع لإستعباد الآخرين أسلوباً ولغة ...

● وقد يعطى البخيل ، لذا تجد عطاءه « فلتة » تاريخية من فلتات الزمن التي تستحق التسجيل .. وربما تكون هذه « الفلتة » هي فعل قدرة ربنا التي قد تغيّر الكل ... وعلى أي حال يظل هذا العطاء البخيلي وهو أقل القليل نوعاً من الفخر الذي يزهو به البخيل أمام الناس ومع نفسه !!

إنني أدون الآن هذه الكلمات لأنني هذا الصباح فوجئت بدعوة من

بخيلٍ لتناول الإفطار على مائدته ، وكان حدثاً حقيقياً على الأقل مع نفسي وأنا أرى بعيني حركاته وهو يقدم لي ليمونة كاملة كان يمكن أن تكفيه أسبوعاً لأنه يستعملها مجزأة على سبع قطع !! كانت حادثة وأنا أراه يقدم لي رغيفاً كاملاً جافاً وليس عليه آثار العفن الذي اعتاد أن يراه فوق سطح مأكولاته فيزيحه بسكينة كاشطة ثم يأكله حتى ولو كان أثر العفن ظهر في اللون أو الطعم !

لقد ظلّلت أسأل عن سبب هذا الحدث التاريخي ، فعرفت أن عشرة هذا البخيل قد دخل فيها إنسان زاهد عابد لا يريد شيئاً ولا يشتهي شيئاً ولا يأخذ حتى الذي له ... لقد عاشره هذا الكريم المعطاء الذي يود أن يعطي كل شيء بغير أن يسعى لأخذ شيء حتى كلمة تقدير أو شكر ... فتأكدت أن الله يعمل من خلال قديسيه ، إذ هو مستريح في أحشائهم لا يهدأ حتى يريح الخليقة من أتعاب وأثقال الخطايا والآثام ...

أشكرك يارب على هذا الإفطار الكريم على مائدة البخيل التائب بواسطة سلوك إنسان يحبك تعلّم عطاء كل شيء بلا مقابل ... عطاء الجهد ، وعطاء الفكر ، وعطاء المال ، وعطاء الجسد ، وعطاء العلم ، وعطاء الوقت ، وعطاء العاطفة ... عطاء الحب لأجلك .



٣١

ضعيف أنا يارب

وضعفاتي ظاهرة وخفية لا تحتمل ، انني لا أطيق ضعفاتي رغم أنها ملتصقة بي ! . كلما أجاهد أسقط ، وكلما أنوى أتعثر ، وكلما أهرب تجري ورائي ... حتى بدأ اليأس يطل بشكله المفزع أمام عينيّ .

لكني أومن يارب أنك حبيب للضعفاء ، ترثي لهم وتقف بجوارهم مانحاً إياهم قوة نازلة من عندك .

أومن يارب أنك تختار الضعفاء : فإبراهيم أب الآباء اخترته وأظهرت ضعف الكذب في حياته . ويعقوب أب الأسباط اخترته وأظهرت ضعف الخداع في غربته ، وداود النبي اخترته وكان قلبه مثل قلبك يفعل كل مشيئتك ومع ذلك أظهرت ضعف الزنا والقتل في جهاده ، وبطرس الرسول اخترته وأظهرت ضعف النكران في حياته ، والقديس أنبا ابرام أسقف الفيوم والجيزة اخترته لكن أظهرت ضعف « الغليون » من فمه !

لم تترك أحباءك رغم ضعفاتهم ، ولم تزدرِ بمختاريك رغم إتساخهم . ولم تتخلَ عن قطيعك رغم زيغانهم ، ولم تخن الذين عاملوك بالخيانة ...

أحبك ياربي ياقوتي مهما كانت قوتي صفراً ومهما كان جهدي عدماً ومهما كان سقوطي مزرياً .

وأثق في أبوتك أن لا تقصف قصبة مرضوضة مكسورة بل تجبّرها ، ولا تخمد فتيلة مدخنة بل تشعلها بريح روحك وحلاوة حبك .

ضعيف أنا يارب لكني أخترت أن أطرح ضعفي أمامك لتعطيني قوتك .

٣٢

... « هل يستطيع التصور أن يرسم لمخيلتك رد الفعل المنتظر من ناظر مدرسة يرى تلميذاً يقف على باب مكتبه داخل المدرسة ويقزقز اللب الأسمر ؟ وعندما يسألك الناظر ماذا تعمل ؟ تقول له أنا زائر لحضرتك أطلب البركة ؟ » !!

هذا قول أبي الروحي لي عندما رآني داخل أسوار أحد الأديرة وأنا أستخدم اللب للتسلية بينما سمعت من أب راهب كان يقف بجوار أبي أن الآباء الرهبان في القرن السابع عشر حيثما كانت تأتيهم لحوماً هدية كانوا يأكلونها خارج أسوار الدير !!!

آه يارب سامحني عن كل مرة اقتربت فيها من موضع القديسين باستهتار ، فالخطية كقول وخبرة الروحيين تبدأ دائماً بالإستهتار .

إن هذه المواضع الروحية روتها دموع تائبين ورمالها احتضنت ركب منحنين مجاهدين ، وهواؤها تنسم رائحة التجرد التي كانت تفوح من ثيابهم وأجسادهم . فكم يكون حزن القديسين آبائي وأرواحهم في السماء

وهم يرون مواضع جهادهم وشهادة حبهم للمسيح وقد تحولت إلى أماكن فسح ولهو واستهتار ؟!!

سامحوني ياأرواح آبائي القديسين ولا تغضبوا ولا تحزنوا على كل إستهتار صدر مني بجهل أو بعلم ، وصلّوا لأجل توبتي عن كل إستهتار في جهادي وحياتي .

٣٣

يارب ليس لي إنسان ... أصرخ إليك لأن توبتي لا يمكن أن يخدمها إلا أنت ، وخلاصي لا يضمنه أحد غير دمك الثمين ، وخطاياي لا تقدر طبيعة بشرية أن تساعدني على التحر [illegible] يابن الله الذي اتحد بإبن الإنسان في كل شيء ماخلا الخطية وحدها ... نعم يارب يسوع لا أجد إنساناً بجواري « يلقيني في بركة الشفاء متى تحرك روحك المتوب للخليقة ، لأن سباقاً عني في اللجوء إليك ... الكل يعدو وأنا المتأخر في السباق وحدي ...

نعم يارب لا أجد ملجأ أحتمي فيه من نفسي أيضاً : رغباتها وشهواتها إلا أنت الذي أجد صدرك الحاني فأدفن فيه رأسي وبنات أفكاري لأسمع دقات حبك تحمل لي نبض المثابرة وروح الجهاد مهما كان سقوطي ...

ياإلهي .. إله السمكة السابحة في البحر المالح ، حية قوية في حركتها ، تأخذ من الماء ما به من أوكسجين للحياة وما به من أطعمة ذائبة للقوت

.. ومع ذلك يظل لحمها حلّو لا يتطرق إليه ملوحة البحر .. ناصعة البياض مهما كانت العوالق في المياه منتشرة ... دسمة بما تحمل من دهن رغم خلوة البيئة المحيطة بها من أي دسم ...

ياإله السمكة الحية أناديك وأؤمن بقدرتك أن تحفظ توبتي مهما كانت الأجواء المحيطة بي غير معينة بل معوقة .. وأن تضرم رجاء خلاصي مهما كانت شباك وأشراك العالم المحيط بي متقنة بل مروعة ...

ياإله لسمكة الحيّة لا تسمح لي أن أجاري الوسط فتفقد توبتي أهم مقوماتها وهو الاحتفاظ بمباديء الإنجيل وسلوك الإنجيليين مهما كانت مباديء غيري ومسالك غيري ... احفظ لي حركة الإرادة الحرة غير المقيدة إلا بحبك وإنجيلك لكي تمنحي القدرة على التخلي عن أي شيء وأية شخصية تعوقني عن الجري خلفك والسعي نحو ملكوتك .

ياإله السمكة الحيّة ليس في غربة العمر سواك وفي بحر هذا العالم المضطرب سلام إلا فيك ... يامن تسمع صراخ عبدك : ليس لي إنسان لكن لي كل شيء أنت معي .



٣٤

إنني أطلب النتائج السريعة في التوبة ، مع أن طبيعة عمل النعمة هي أن تبدأ بمعونة فتيلة مدخنة ثم تتدرج في دعمها للضعيف بقدر ما يقدم من نية صادقة وعزم أكيد حتى تصبح جذوة تشعل القلب كله بحب دافق لله وللإنجيل ...

أطلب الثمار المبكرة دائماً ، مع أن الأرض الجيدة التي تقع عليها كلمة الله وهي فى أفضل نوعياتها تحتاج إلى الصبر حتى تتحرك البذرة إلى نبته ثم ساق ضعيفة ، فشجيرة ثم شجرة مورقة وفي النهاية مثمرة بقدر ما تنال من تغذية صحيحة ورى مستمر يروي عطشها ...

لهذه الطبيعة البشرية التي تجري وراء السرعة أُصاب دائماً بالإحباط وأنا أرى محاولات التوبة المتكررة مني تتعثر تارة ، وتفتر أحياناً ، وتتردد كثيراً .. لعل الرب كان يرى في الطبيعة البشرية ذلك عندما قال أن التائبين « يسمعون الكلمة فيحفظونها في قلب جيد صالح ويثمرون بالصبر » (لو ٨:١٥) ...

كذلك فإني تأكدت من قول مار بولس « لأنكم تحتاجون إلى الصبر » (عب ١٠:٣٦) عندما هاجت عليَّ نفسي وكرامتي عندما ظلّلت منتظراً أب اعترافي خمس ساعات لا عترف ثم خرج إلى خدمة دون أن اعترف ؛ وعدت إلى الاعتراف بعد أيام ليتكرر هذا المشهد مع صعوبة أكبر عندما رآني أبي وتجاهل رؤيتي حتى أنه لم يمد يده لأصافحه ...

لقد تذكرت احتياجي للصبر في التوبة وأنا أقدم حباً لأخ فيظنه بعكس ما قصدته بل ويؤوله إلى شر ويسيء الظن والتصرف والأسلوب معي ... لقد تطرقت الكراهية إلى قلبي وشعرت بحاجتي إلى الصبر لأثمر الحب في قلب هذا الأخ مع جهاد الأيام وطول زمن .

لقد تذكرت إحتياجي للصبر في التوبة وأنا أرى نفسي تهجم عليَّ بشدة تطلب مني شهوة بإلحاح متكرر ، فتذكرت التائب القديس أنبا إبرام أسقف الفيوم والجيزة ونفسه تشتهي أكلاً بذاته ... فيصبر ويؤجل إتمام ما اشتهاه حتى انفضحت حقيقتها فأدب نفسه بالصبر والتأجيل .. نعم إنه بالصبر إقتنى نفسه كقول الكتاب : « بصبركم تقتنون أنفسكم » (لو ٢١:١٩)

ياإلهي يامن خلقت العالم في سبعة أيام غير زمنية ...

ويامن دبرت الخلاص في أجيال متعاقبة وبتدرج من الحرف القاتل إلى الروح المحيي ...

ويامن تكوّن الإنسان في بطن أمه في تسعة أشهر ...

اعطني أن أحتضن التوبة في رحم الجهاد القانوني أياماً وشهوراً وسنيناً بغير تعجل للزمن ، وبغير سرعة في طلب الثمر .. فإنني حتى لو بحكمة منك لمعرفتك غروري حرمت من رؤية الثمر على الأرض فذكرني أنه في السماء قال الملاك « هنا صبر القديسيين وهنا الذين يحفظون وصايا الله

وإيمان يسوع (رؤ ١٤ : ١٢) ...

فالتوبة الجادة التي تبدأ هنا على الأرض معاناة وامتحاناً وهواناً لابد أن تكون ثمارها في السماء اكاليلاً وتتويجاً وأمجاداً ... وخلال الرحلة من الأرض للسماء إعطني الصبر لأثمر ثماراً تليق بالتوبة .

٣٥

كلّف صاحب البيت نجاراً أن يعد له دولاباً للكتب بمواصفات معينة ، وأثناء التنفيذ رأى الصانع أن ينفذ المكتبة بصورة أخرى راقت له ... ولما انتهى من العمل فوجيء بصاحب البيت ثائراً جداً وقال له ليست هذه الصورة التي أردتها للمكتبة ، وطالبه بالتعديل حتى تتطابق مع طلباته ... فثار النجار في وجهه : هذا أفضل وأمتن ، ولن أنفذ ! ... اندهشت جداً من هذا النجار الذي فقد أبسط أصول التعامل مع الزبون ، فهو خادم لرغبة الزبون لا لرغبته وهو منفذ لإرادة صاحب الشيء لا لإرادته ...

ذكرني هذا النجار بنفسي ، فالله يريد أن يتوبنّي بالصورة التي صورّني بها قبل أن أكون في بطن أمي .. لكنني أنمق توبتي وفق هواي الخاص ومزاجي الشخصي وأفكاري الضئيلة ... مسكين أنا في عقلي بالحقيقة ، أقطع أشواطاً في التوبة المشروطة بشروطي دون أن أخذ رضا الله ولا أجرة العبد الصالح ... قد يرى الله أن يجمّل توبتي بقسط من المهانة ، أو بلون من الضعف ، أو بقصور في الصحة ، أو بحرمان من التقدير ... وأكره أنا ذلك ، بل أرفضه وأظل أدق برأسي رافضاً ... فأظل وكأني في طابور

« محلك سر » بلا نمو ولا حركة حية نحو الملكوت إلى أن أفيق وأقول لتكن لا إرداتي لأنني مرسل من السماء سفير للمسيح على الأرض أعيش الإنجيل وأحيا كما يريدها مرسلي ...

لقد وبخني قولك يارب المجد وأنت الذي لم تضمر اختطافاً أن تكون مساوياً للآب في الجوهر أن تقول أمامي « ينبغي أن أكون فيما لأبي » (لو ٢:٤٩) ، وأطعت حتى الموت موت الصليب (في ٢:٨) .

علمني يارب أن أعيش التوبة التي تريدها ، لا التي أريدها أو يريدها الناس ... فانني أناديك مع النبي القائل « توبني فأتوب لأنك أنت الرب إلهي » (إر ٣١:١٨) .

سامحني يارب عن كل مرة اعتراني فيها الضجر أمام ما تطلبه قداستك مني في التوبة ...

٣٦

في المعارك تخرج كتيبة من الجنود مكونة من عدة فصائل للقتال ، تحمل أسلحتها ومؤونتها وأدويتها ... وخلال المعارك أتخيل جندياً يرى زملاءه يتساقطون مدرجين في دمائهم ، وتسقط عنهم رتبهم وأسلحتهم وأسماءهم من سنجل الأحياء ... أتخيل هذا الجندي فيما يفكر فيه : هل يبقى بجوارهم ينتحب وينوب عوضاً عن ذويه أم يصرخ صرخة قتال ويثابر ويختبيء ويظهر حسبما تحتاج الحالة ويقدم بالجهاد نصراً منتزعاً بالجهاد ؟!!

تخيلت ذلك في مسيرة تائب ، قد يبدأ بمزاملة تائبين مجاهدين .. ثم

مع مضى الأيام يجد نفسه وحيداً في طريق التوبة فذاك قد ابتلعته المشغوليات بالماديات وآخر بالمشتريات والمبيعات وثالث بالزيجات والاتفاقات ورابع بالعمارات والمقاولات ... يبحث عن رفاقه في الحب الإلهي والعطاء الكنسي فيجد فتوراً كاملاً كقول الكتاب « لكثرة الإثم تبرد محبة الكثيرين » ... ثم يبحث عن هؤلاء الذين ركعوا متجاورين أمام الرب ، وخرجوا إلى حقول الخدمة متزاملين ، وساروا على الرمال بأقدام متوازية في رحلات الخلوة للأديرة وبيوت الخلوة ... يبحث عن هؤلاء الذين كانوا يجدون متعتهم في التبكير لله في القداسات والصلوات والأصوام ... فيجدهم غير مكترثين بالنفوس ، الاجتماعات .. صارت لا تشبعهم ، والقداسات صارت مكاناً للقاءات لا للصلوات ... صار الكاهن الفلاني غير طاهر في نظرهم ، والخادم الفلاني لا يملأ شخصيته وبالتالي لا يصلح لمكانه ، والخدمة الفلانية غير مناسبة لأوقاتهم ، وصارت المباديء الأولى نوعاً من الشطط والتطرف ...

تخيلت هذا كله فماذا يصنع التائب الحقيقي ؟

حقاً لا أنكر أن اثنان خير من واحد والخيط المثلوث لا ينقطع سريعاً ، حقاً أعرف مقادر التشجيع الذي يتولد عن صداقات التائبين الحقيقيين ...

لكن ما لم يجد التائب الحقيقي هذا أيرجع ؟ أم يندب ؟ أم يصيبه الشك ؟ إن التائب الحقيقي في مثل هذه الحالات هو الذي يصرخ

« أعيش التوبة ولو كنت في العالم وحدي .. وأنا حتماً لست وحدي ، لأن هناك تائبين حقيقيين كثيرين يملأون أرجاء الكنيسة الجامعة واقفين بجهادهم أمام عرش النعمة يجمعهم معي الإيمان الحيّ النقي ويؤازرونني بالروح المعزي غير المرئى مالىء الكل » يضرب المطانيات بقوة ، ويقرع صدره بخشية ، ويتذلل أمام الله في خفية ، وينهض راكضاً بخفة ، كارزاً بصنيع الرحمة معه بهمة ، يظل حتى آخر نفس في حياته يردد « أحبك يايسوع كارهاً للخطية محباً للخطاة .. معيناً للتائبين ولا بد للتائب الحقيقي أن يتوقع وحدة الجهاد ووحشته دائماً ، ناظراً إلى رئيس الإيمان ومكمله يسوع ... الذي سيكشف له حتماً أن في مسيرة التوبة رفقاء أُخر وإن كانوا مجهولين عن معرفته .

٣٧

قرأت اليوم أن كل كلمة تخرج من فم إنسان لا تضيع في الهواء كما يقول ، لكنها تتحول إلى موجات صوتية يحملها الأثير إلى اللانهاية ، وبعد ألوف السنين من النطق يمكن التقاط هذه الموجات مرة أخرى بشرط توفر آلات معينة حساسة ...

بعد أن قرأت ذلك شعرت ببركة ، وبرعدة ...

شعرت بالبركة ، إذا أمكن التقاط الموعظة على الجبل التي خرجت من فم ربنا يسوع المسيح منذ عشرين قرناً من الزمان بصوت الرب يسوع نفسه لأسمعها من جديد !! إنه فرح لا يوصف أن أسمع صوت إلهي

وحبيبي ...

لكنني شعرت أيضاً برعدة ، لأن كل كلمة خرجت من فمي تحمل إدانة أو تجريحاً أو دنساً أو تحريضاً أو إساءةً سوف تتجمع من جديد وسوف تشهد عليَّ أمام الله في يوم الدينونة ...

آه يارب ... لقد جاءت لي هذه القراءة عن هذا الاكتشاف العلمي الجديد في اليوم الذي كنت أصلي فيه على جثمان زوجة شابة ، ولما سألت عن السبب أو الحدث الذي قاد إلى هذه المفاجأة أندهشت لما عرفت أنها سقطت على الأرض وفقدت الحياة في الحال بعد مشادة كلامية مع زوجها كان يتهمها فيها بكلمات مسموعة عن الخيانة ... لم يتحملها جسدها ، أو قل لم تحتملها روحها فخرجت سريعاً هاربة من سجن هذه الدنيا ...

عرفت ما تسببه الكلمة المسموعةمن أضرار في الناس وفي الإنسان نفسه ، وعرفت فعل القوة التي تسببها الكلمة الطيبة المشجعة في قلوب المحتاجين إليها عرفت حقاً يارب أنه بكلامنا ندان ، وبكلامنا نتبرر .

فاعطني يارب أن أتوب عن كل لفظ خارج ، وكل كلمة مهينة ، وكل عبارة غير مهذبة ... توبني يارب عن الأحاديث والكلام الذي خرج مني في لحظات سقوط وعثرة وامحها لي من الوجود كله .. وامحو موجاتها الصوتية من الفضاء كله .. امحها يارب لي أنت القادر وحدك على ذلك ...

وذكرني كل يوم بكلمة طيبة أزرعها في قلب إنسان واحد على الأقل .

٣٨

اشكرك يارب لأنك لا تنسى صوت صارخ إليك يترجاك فيما ينفع توبته وخلاصه . أنك تجند كل ما تملك من قوى السموات والأرض لكي تحقق لهذا الصوت مهما كان خافتاً ضعيفاً رغباته ..

انني كنت الآن بعد طعام العشاء أنوي الذهاب إلى فراشي ، لكنني وجدت رفيق الرحلة ورفيق الغرفة الواحد والضيق الواحد يدعوني للمشي في حديقة الدير .. فلم أمانع إطلاقاً مع أن جسدي يشكو من البرد والانفلونزا ، وسرت معه في ردهات الدير وعند نهاية الطريق وقفت بينما هو تابع المسير ثم التفت يكلمني فلم يجدني بجواره بل خلفه بخطوات ... فاقترب مني وقال لي نرجع لكن من الطريق الآخر ، فلم أمانع وسرت معه إلى أن رأينا « كدوة » نار مشتعلة يجلس أمامها صاحب جلباب أسود فاقتربنا نعطي السلام ونطلب الصلاة ، فنظر إليَّ وقال ألسنت أنت .... إنني كنت أطلب طول اليوم من الله أن ألاقيك ولم أسعى فهل تسمح لي بلحظات نجلس سوياً ؟! ... .

ولما جلست معه تذكرت كيف قادني الله من الفراش إلى جوار هذا المحب للمسيح الباحث عنك ياإلهي يامخلص كل الصارخين نحوك .. أنت الذي لا تتأخر عن نداء مستقيم من قلب يحبك ويطلب التوبة ويجاهد لأجلها ...

اشكرك يامن أكدت لي أن نيّة التوبة مكرمة في عينيك تساعدها وتسخر كل خدامك لتخدمها في قلوب تابعي صليبك ...

٣٩

كان يخدم الله بعد انقضاء عمله الصباحي ، وفي كل مجالات الخدمة بالمدينة والقرية وكان من عادته ألا يشترى ثياب إلا بعد إستهلاك ما يلبسه وكان ينفق كل ماله على خدمة الله ... وجاء يوم الأربعاء ، ودخل الكنيسة ليسجد أمام باب الهيكل ففي خلال سجوده (وهو ممتلىء الجسد) انشق القميص الصيفي الذي كان يلبسه من الظهر إلى نصفين .. ففي نفس اللحظة ، وهو يسجد ، صرخ إلى الله وقال له : هذه أول مرة أطلب منك طلبة مادية فأنا لا أملك ثمن القميص ... ثم رجع إلى منزله يفتش في ملابسه فلم يجد قميص ثاني صيفي لكن وجد قميص كستور فلبسه ونزل به يوم الخميس اجتماع الشباب حيث كان المتكلم مدعو من القاهرة ويعرفه ، الذي حالما قابله أعطاه ظرف جواب مغلق وعليه اسمه فلما فتحه وجد به عشرون جنيهاً .. فسأل الخادم الضيف من قال لك أني محتاج لنقود ؟ .. فقال له وأنا في الطريق إلى هنا قابلني شخص وقال لي إلى أين تذهب فقلت له للسويس ... فقال له اعط هذا الجواب لفلان وأنا أحضرته ! فتعجب الخادم من أعمال الله في رعايته العجيبة لأولاده في سائر الظروف .

٤٠

أشكرك يارب لأجل الظل القائم الملتصق دائماً بالأشياء .

فلم يوجد خليقة من خلائقك ليس لها ظل ، لأن كل مخلوقاتك للنور

خلقت .. وهي بواسطة النور يصير لها ظلاً ..

فالأشجار رغم فوائدها الكثيرة ، إلا إنني كلما جلست في ظل أحدها أستريح من عناء مسير فأجد تحتها نسيماً منعشاً أسبحك لا لأجل خيراتها فقط بل لأجل ظلها المعتم أيضاً .. فلو لم يكن هذا الظل معتماً لما وجدت في هذه البرية القاحلة مكاناً أستريح فيه واجدد النشاط ...

إن الكنيسة المجاهدة كلها على الأرض هي ظل للأبدية « إذا ما وقفنا في هيكلك المقدس نحسب كالقيام في السماء » ولذلك قد لا نرى في الكنيسة سوى قتام هو في الحقيقية تأكيد ان الكنيسة حيّة في السماء وظلها على الأرض كلها ... بهذا أتعزى ياربي يا معزي صغيري النفوس ... لأن كل ما أراه حولي ظلام حالك من الخطية وآثارها لا يريعني ولا يحطم رجائي ويجعل اليأس يبتعلني ... بل يؤكد لي أن هناك حياة حقة وان كان كل ما يرى هو ظل الحياة في النفوس التائبة .. فليكن ... على أي حال الظل له فوائد أيضاً ...

أشكرك يارب على لحظات سقوطي وظلالي الدائم ... أرني في كل ظل أن هناك حقيقة قائمة أحتاج إلى النظر إليها فأفرح واتعزى مهما كان الواقع مجرد ظل ...







إننى لم أبدأ التوبة بعد،
لكننى أجاهد لعلى أُفرّح قلب الرب المحب
وربوات قديسيه فى السماء.
إنما هذه اليوميات هى تسجيل
للتلاقى اليومى مع جموع التائبين
فى كنيسة المسيح.
لعل الرب ينظر إلى ضعفى بصلواتهم،
وصلواتك يا عزيزى القارئ